مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (35) العدد (2)2013
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (35) No. (2) 2013

الوصف في شعر ملوك وقادة في الأندلس بين النّعمة والنقمة

الدكتور عيسى فارس*
طلال علي ديوب**

(تاريخ الإيداع 25 / 3 / 2013. قبل للنشر في 8 / 5 / 2013)

□ ملخّص □

الوصف من أهّم مقوّمات الشّعر وركائزه لحضوره في الأغراض الشعريّة كافّة، وهو يصوّر واقع الشعر العربي، ولا يقف عند رسم الأشكال، بل يعلّل وجودها، ويقاس بمعايير الجمال والدقّة، والقدرة على الإيحاء والتّصوير والبحث أمام الخيال، وقد أكثر الشّعراء الملوك والقادة من رسم الصور المتلاحقة لموصوفاتهم التّي استمدّوها من البيئة، فوصفوا ما حولهم من مظاهر الطبيعة والكون، فكان الوصف مظهراً من مظاهر التعلّق بالوطن والاعتزاز بطبيعته الغنّاء، وإقباله على مباهج الحياة، وتصويراً لمشاعرهم وتجربتهم القاسية التي عاينوها داخل السّجن، بما فيها من ملامح وخلجات ومواقف جديرة بالاهتمام والتّتبّع.

وتتقصّى هذه الدراسة أشعار الملوك والقادة التي أُنشدت في الوصف، فمنها موصوفات أطالوا الوقوف عندها، ونالت من اهتمامهم الحظ الوافر، ونظموا فيها القصائد الطوال، كمظاهر الطبيعة الصامتة التي شكّلت موضوعاً من المواضيع المحبّبة إلى نفوسهم، تحفّزهم على النّظم فيه بطلاقة وتلقائيّة، طبيعة الأندلس الغنّاء، ونفسيّة الأندلسيّ الرقيقة التوّاقة إلى تجليّات الجمال، وصنف آخر من الموصوفات اكتفوا فيه بالوقفة العابرة واللمحة الخاطفة.

وفي الجانب الآخر سنقف على تصوير تجربتهم في ظلام السجن بما فيها من مظاهر قهر وعذاب، ومشاهد فراق وحرمان، ونتتبع ملامح الصورة العامة للسجن من خلال معالجتنا للصور الجزئيّة التي رسمها كل شاعر في مواقف مختلفة.

الكلمات المفتاحية: الوصف، الملوك، القادة، النّعمة، النقمة، الأندلس.

* أستاذ مساعد – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.
**طالب دراسات عليا (دكتوراه) – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (35) العدد (2)2013
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (35) No. (2) 2013

Description in the Poetry of the Kings and Leaders of Andalusia Between Grace and Resentment

Dr. Aissa Faris*
Tallal Ali Deyoub**

(Received 25 / 3 / 2013. Accepted 8 / 5 / 2013)

□ ABSTRACT □

Description is one of the most important elements of poems and poetry, because of its presence in all poetic purposes. It depicts the reality of Arab poetry and is not limited to drawing shapes, but it accounts for their existence. It is measured by the standards of beauty and precision, and the ability to suggest, depict and search in imagination.

Poet kings and leaders are abundant in giving consecutive images of the description subjects. Those images, or depictions, are taken from the environment, so they described manifestations of nature and the universe around them. Therefore, the description came as a manifestation of their passion for the homeland, and pride in the beautiful nature. It also came as an embracing of the joys of life, and as a depiction of their feelings and the harsh experience they have suffered inside the prison, including the features, the feelings and attitudes worthy of attention.

This study investigates the poems of kings and leaders which were descriptive. Some of them are elongated descriptions where they composed long descriptive poems, such as those on the manifestations of silent nature, a subject endearing to them. It was so because this subject motivated them to spontaneously and fluently compose poems on the bright nature of Andalusia, and the tender personality of the Andalusian which was eager to the manifestations of beauty. On the other hand, there was another kind of description, which was swift and suggestive.

On a different scale, we will portray in detail their experience in the darkness of the prison. We will follow the features of the general image of the prison, through our treatment of partial images drawn by each individual poet in different positions.

Keyword: Description, kings, leaders, grace, resentment, Andalusia

***Associate professor, Arabic Department, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.**
****Postgraduate student, Arabic Department, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia , Syria.**

مقدمة:

الوصف من أهم أغراض الشعر، لأن أكثر الشعر يرجع إليه، فهو أحد مقومات الشعر وركائزه الأساسية، والوصف غرضاً وموضوعاً ومعنى متلبس بأغراض الشعر العربي جميعها، لا يكاد يغيب عنها. وقد اهتم الشعراء الملوك والقادة اهتماماً ملحوظاً بالوصف، فتعددت الموصوفات عندهم وتنوعت، واستغرقت كماً كبيراً من دواوينهم الشعرية، وسجلت حضوراً ملفتاً في نصوصهم، منها ما مثل عندهم هماً إبداعياً ومشغلاً أساسياً مثل وصف الطبيعة الصامتة ومجالس الأنس، ومنها ما كان الوصف فيها من قبيل الومضة واللمحة مثل وصف الإنسان بجماله وقبحه، بآفاته وعاهاته، وصف البلدان مدحاً أو ذماً، ووصف المصنوعات المتنوعة.

ولدى شعرائنا مادة وصفية جديرة بالاهتمام والبحث، وهي ذات أهمية بارزة فيما تدلل عليه من خصوصيات ذات قيمة عالية في إحضار فنون القول، والكشف عنها لدى شعرائنا، وفي إنارة جوانب من حياة الأندلسيين كما تبرزها موصوفاتهم، وهي متعددة وثرية.

ومن مزايا غرض الوصف عند شعرائنا الملوك والقادة أنه صور الأندلس وحياتهم فيها، بوجهين متناقضين، وجه مشرق مضيء يبرز جوانب النعمة وحياة الدعة والاستقرار والتمتع بمباهج الحياة وملذاتها، ووجه قاتم يصور عتمة السجن وقتامة الحياة فيه، ويبرز مشاعر الألم واليأس التي تعتصر قلوب الشعراء وانعكاس ذلك على موصوفاتهم.

أهميّة البحث وأهدافه:

تنبع أهمية هذا البحث من كونه يعرف بغرض مهم من أغراض الشعر، عبر عنه الشعراء الملوك والقادة ونظموا فيه بكل دقة وإتقان، فوصفوا كل ما هو كفيل أن يشكل الخلفية الفكرية الثقافية والفنية التي صدروا عنها، وينير لنا جوانب من نفسياتهم، ويبرز الأسباب التي دفعتهم إلى تناول ما تناولوه من موصوفات، ويبين لنا مناهجهم في تناولها، والأساليب التي اعتمدوها، كما يكشف عن مدى ارتباط ذلك بالواقع الأندلسي، وصلته بالظرف الخاص الذي عاشه الشعراء الملوك والقادة في فترتين متناقضتين من حياتهم.

وقد اخترت . كما أظن . الجانب الأكثر أهمية في أشعارهم، وهو موضوع الوصف، لما له من علاقة وطيدة بحياتهم كلها، ونفسيتهم التي انتابتها مشاعر متناقضة في مراحل مختلفة من حياتهم.

أما أهداف البحث فتتجه إلى استقصاء أهم الأشعار الوصفية، وذكر أبرز ما وصفوه، فلفت انتباههم، وألهم قرائحهم، ثم تحليل نماذج مختارة تبين خصائص الوصف عندهم، وعلاقته بالواقع الاجتماعي الأندلسي.

منهجية البحث:

إن المنهجين الوصفي والبنيوي هما الحاضران في هذه الدراسة، وذلك انطلاقاً من أن البحث يقف عند مادة شعرية هي أشعار الملوك والقادة في غرض محدد وهو غرض الوصف، ومن ثم تأتي القراءة الشعرية اللغوية لتحاول الغوص في هذه المادة ومضامينها.

الدراسة:

تعد مظاهر الطبيعة الصامتة من الموصوفات التي مثلت هماً إبداعياً عند ناظمي الوصف والمهتمين بالخوض في هذا الغرض وقد خصوها في مطولات أو مقطوعات ومزدوجات، أو أبيات في مقدمة قصائدهم، أو في متنها فشعر الطبيعة بقي عند الشعراء الملوك والقادة شأن غيرهم من الشعراء الأندلسيين من الموضوعات المثيرة للاهتمام والمحبة

إلى نفوسهم وقلوبهم ينظمون فيها بعفوية وارتجال وإتقان، تحفزهم على ذلك طبيعة الأندلس الساحرة الفاتنة، ونفسية الشاعر الأندلسي المفعمة بالرقة والحساسية إلى تجليات الجمال ومظاهره، وتفاوت هؤلاء الشعراء في القدرة على النظم في هذا الفن راجع إلى اختلاف تأثرهم بالطبيعة وإلهامها لهم " فالوصف يتأثر ببيئة الشاعر التي يعيش فيها، وعلى الشاعر أن يصف بيئته وزمنه".[1]

يعمد شعراؤنا إلى وصف الطبيعة في فصل الربيع ، كمشهد تفاعل وتجاوب وانسجام، إذ أن فصل الربيع هو الفصل الذي يمنح فيه الطبيعة منظراً ملفتاً بما تحتويه من مكونات وعناصر تشتمل على الأشجار المثمرة، والأزهار المتعددة الألوان والأصناف، فتأتي منسجمة بيد شاعر فنان، تبتهج بها النفوس، وتطرب لها الآذان، فتلك الصفات الرائقة التي تتميز بها الرياض استمالت شعراء الأندلس، وازداد تعلقهم بها، وولههم بوصفها في أشعارهم، فقد اهتم الشعراء الملوك والقادة كغيرهم بالطبيعة الربيعية الزاهية المشرقة، فيقول الوزير ابن شهيد مثلاً في قصيدة يمدح بها سليمان المستعين بالله في فصل النيروز، وفيها قطعة عجيبة في نواوير عدة: " من الكامل "

وأتاكَ بالنَّيروزِ شوقٌ حافزٌ	وَتَطلُّعٌ للزَّوْرِ غِبّ تَطَلُّعِ
وافاكَ في زمنٍ عجيبٍ مونقٍ	وأتاكَ في زهرٍ كريمٍ مُمتِعِ
فانظرْ إلى حُسنِ الرّبيعِ وقد جلَتْ	عن ثوبِ نَوْرٍ للرّبيعِ مُجَزَّعِ
فكأنَّ نرجِسَهَا وقد حشدَتْ بِهِ	زُهْرُ النّجومِ تقاربَتْ في مَطْلَعِ
أو أعْيُنُ الأحبابِ حينَ تراسلَتْ	باللَّحظِ تحتَ تخوُّفٍ وتوَقّعِ
وبها البنفسجُ قد حكى بخضوعه	وَقُنُوِّ لونٍ في سوادٍ مُشْبَعِ
خَدَّ الحبيبِ وقد عضضْتَ بجنَّةٍ	فَشَكا إليكَ بأنَّةٍ وَتَوجُّعِ
وكأنَّما خيريُّها تحتَ الدُّجى	بينَ الأزاهرِ قامَ كالمتطلعِ
يرجُو زيارةَ من يُحبّ لِوَعدِهِ	كلَفَاً فباتَ مُراقباً لم يَهْجَعِ[2]

يقدم الشاعر في هذه الأبيات لوحة طبيعية زاهية مفعمة بالحيوية، إنها جوقة كاملة متفاعلة متجاوبة، صوراً وألواناً وحركة، اجتمعت فيها الأزاهير على اختلاف ألوانها وأشكالها، في علاقة تآلف وتفاعل. إنه لمشهد غريب، في زمن عجيب مونّق، تجلّت فيه فكرة التفاعل والتجاوب في مشهد الربيع، بين زمان الممدوح " عيد النيروز" "شوق وتطلع"، " وزمان الربيع " " زمن عجيب مونق "، وكلاهما يتصف بالحسن والسحر والجاذبية. لنتأمل مشهد الربيع بكل عناصره ومكوناته، وقد كشف عن زهر موشى ومزين بألوان مختلفة، حيث يبدو النرجس أشبه بنجوم مشرقة قاربت على الظهور، أو أعين أحباب تبادلت النظرات بترقب وجزع، أمّا البنفسج فقد حاكى وشابه بخضوعه وخشوعه خدّ الجيب، وقد شكا التوجّع والأنين، والخيري تحت ظلام الليل بين الأزاهير أشبه بمتطلع متيم يود زيارة من يحب، فأضحى مترقباً

---

1 . بدوي، د. أحمد أحمد. أسس النقد الأدبي عند العرب. دار نهضة مصر للطباعة والنشر،القاهرة، 1979م، ص 280.

2 . ابن شهيد، أحمد بن عبد الملك الأشجعي. ت (426هـ/1035م)، ديوان ابن شهيد الأندلسي. تحـ: يعقوب زكي، راجعه الدكتور محمود علي مكي، ط1، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1969م، ص125، الغب: مادة " غبب "، قيل هو يوم وليلتين، وقيل هو أن ترعى يوماً وترد في الغد، وقيل هو ما ينوب يوماً بعد يوم، ص126. المجزع: مادة " جزع ": أي بلغ النضج من أسفله إلى نصفه، والمجزع: المقطع بألوان مختلفة. انظر لسان العرب، الجزء التاسع، ص397.

انظر: الحميري، أبو الوليد إسماعيل. البديع في فصل الربيع. تحـ: د. علي إبراهيم كردي. ط1، دار سعد الدين، دمشق، 1997م، ص41.

لا يعرف النوم والرقاد. فقد وظف شاعرنا أداة التشبيه البيانية لإبراز عناصر الجمال في مكونات الطبيعة من نرجس وبنفسج وخيري، ومزج بين وصف الطبيعة والغزل، فأنس بمشاهدها الجميلة، وأقبلَ على الجانب البهيج منها، يعبُّ في رحابها ساعات السعادة والنعيم، ودأب على وصف الربيع، وكل ما ينطوي عليه هذا الفصل البهيج من أمل، وما يبعثه في النفس من غبطة. ولنلحظ هذا التناسق الصوتي الإيقاعي بين مفردات الشطرين في البيت الثاني، مما أكسبه رونقاً وحلاوة في النطق والسمع، فيتجلى زمناً عجيباً ساحراً بانكشاف مشهد الزهر الكريم الممتع.

وابن زمرك لا يذكر الأزهار وحدها، وإنما يبرزها في محيط تدخل فيه مكونات أخرى، فيصف لنا منظراً نشاهد فيه الأزهار وقد تثاقلت أوراقها بقطرات الندى، ومرّ النسيم العليل عليها فتمايلت، إذ نراه يتعجب من ذلك الانسجام والتناسق كاشفاً عن مهارة الفنان الجليل سبحانه وتعالى، فها هو ذا يقول: " الكامل"

هَبَّ النّسيمُ على الرّياضِ مع السَّحَر ... فاستيقظَتْ في الدَّوْحِ أجفانُ الزَّهرْ
ورَمى القضيبُ دراهماً من نَوْرِهِ ... فاعتاضَ من ظلّ الغَمامِ بِهَا دُرَرْ
نثرَ الأزاهرَ بعد ما نَظَمَ النَّدَى ... يا حُسنَ ما نظَمَ النّسيمَ وما نَثَرْ[3]

وتتجلى فكرة التفاعل والتجاوب في وصف الطبيعة عند ابن زمرك في التماثل بين زمان الممدوح، وزمان الربيع، فكلاهما يتسم بالاعتدال والشباب المتجدد، وقد كسا الربيع زمان الممدوح ثوباً من الزهر مشرقاً: " من الطويل "

زمانُ اعتدالٍ قد أجدَّ شبَابَا ... وأُلْبِسَ مِنْ زهرِ الرّبيعِ ثِيَابَا

ثم يقدم لنا مشهد الطبيعة بعناصرها ومكوناتها المتنوعة، وقد جمعتها علاقة تعاطف وحنو ورفق:

أَجِلْ نظراً في الدَّوحِ تُكسَى أزاهراً ... وقد رفعَتْ بين الرّياضِ قِبَابَا
ثغورٌ تروقُ العينَ منها مَبَاسِمٌ ... تَرَى النَّحْلَ تجني بينهُنَّ رُضابَا
وَقبّلَ خَدَّ الوردِ ثَغْرُ أقاحِهِ ... فَمَدَّ عليه للحياةِ نِقَابَا
وَيُرسِلُ دَمْعَ الطّلّ من لَحْظِ نَرْجِسٍ ... فيعلُو بأكواسِ العرارِ حَبَابَا
وكم غُصُنٍ للآسِ يعلُوهُ زهرُهُ ... كمثْليَ في حالِ الشبيبةِ شابَا
وجدَّد بعدِ المشيبِ شبابَهُ ... فيا ليتَ لي بعدَ المشيبِ شَبَابَا

ويتجلى الربيع في الأبيات كمصدر حيوية ونشاط، ومبعث بهجة وسعادة، ولئن تحقق التجديد في الطبيعة، فإنه لم يتحقق للشاعر المتكلم، فيكتفي بالتمني " فيا ليت لي بعد المشيب شبابا " وإذا كان الشاعر قد قدم الطبيعة في هيئة عرس بهيج واحتفال كبير، فإن ذلك يخفي إحساساً بالعجز والتحسّر، عبّر عنه بالتركيب السابق المتمثل بالتمني، وهو أقصى حالات العجز، فالتفاعل عكسي بين الطبيعة والإنسان، فإذا كانت الطبيعة تتجدد مع قدوم كل ربيع جديد، فإن

3 . ابن زمرك، محمد بن يوسف الصريحي الأندلسي الغرناطي. ديوان ابن زمرك. جمعه وقدم له وفهرسه: د. أحمد سليم الحمصي. ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 1998م، ص 40.

الإنسان يفقد شبابه مع مرور كل عام، لذلك يدعونا إلى الاستمتاع بالشباب، واغتنام الفرص، فالعمر ليس إلّا حلماً لذيذاً:

فسابِق إلى اللّذاتِ في ملعب الصِّبَا وانضِ به ذِمَمَ الشَّبابِ عِرَابَا
فما العيشُ إلّا غمضةٌ ثُمَّ يقظةٌ فَخُذْ من لذيذِ الحُلْمِ فيه لُبَابَا

ولا يصرّح الشاعر تصريحاً واضحاً بيناً بهذا الإحساس الفاجع بالزمان، وإنّما يلمّح إليه تلميحاً عبر الدعوة إلى اغتنام الفرص في هذه الحياة قبل فوات الأوان، لأنَّ العمر قصير، ويلتقي هذا النص ونصوص الموشحات في إبراز اللذة الكاملة المتمثلة في الطبيعة الربيعية المشرقة، والخمرة الصافية المشعة، والغناء الذي تطرب له الآذان، واللّحن العذب الشفاف، والمرأة التي يتخذ منها مصدر تصوير للطبيعة، وكلُّ ذلك من شأنه أن يكون " السعادة " أو " روح الحياة " على حد تعبير الشاعر حين قال:

أعادَ على الأيّامِ رُوحَ حياتِهَا وَفتَّحَ فيها للسّعادةِ بابَا[4]

وقد وظف في أبياته معجماً ثرياً استمد وصف الطبيعة ومشاهدها من صورة المرأة الفاتنة، فأوردَ جملاً وتراكيب كاملة تخدم هذا الغرض، فالشباب لباسه من زهر الربيع " أُلْبِسَ من زهر الربيع ثياباً "، والدوح كسوته من الأزاهر " تُكْسَى أزاهراً "، والأزهار " ثغور ذات مباسم ورضاب "، و" حمرة الورد نقاب حياء "، أو على هيئة تراكيب إضافية تؤكد حضور العنصر الجمالي للمرأة في وصف الطبيعة الغناء، " خدّ الورد "، " ثغر الأقاح "، " لحظ النرجس"، " دمع الطل "، الدمع والجفون للزهر، وما نلحظه في هذه التراكيب أن المضاف عضو من أعضاء الإنسان، أمّا المضاف إليه فيتشكل عنصراً من عناصر الطبيعة، مما يدلل على معنى التماثل والتطابق بينهما.

وهكذا تراءت المرأة للأندلسيين صورة زاهية من جمال الطبيعة، ومظهراً فاتناً من مظاهر حسنها. وتتجلى الطبيعة أكثر ما تتجلى في غزل ابن زيدون، إذ يصعب التفريق بين ملامح المرأة، وبين تجليات الطبيعة ومشاهدها، والقصيدة النونية في شعره أبرز مثال على هذه الظاهرة المميزة، والتي مطلعها: " من البسيط"

أضحى الْتنائي بديلاً من تدانِينَا وَنَابَ عن طيبِ لُقيانَا تَجَافِيْنَا[5]

ومن هذا القبيل قوله: " من الخفيف "

الهوى في طلوعِ تلكَ النُّجومِ والمُنَى في هبوبِ ذاكَ النّسيمِ[6]

4 . ديوان ابن زمرك، ص 22.

5 . ابن زيدون، أبو الوليد. ديوان ابن زيدون. تحـ: كرم البستاني. د. ط، دار بيروت للطباعة والنشر، 1984م. ص 9.

6 . ديوان ابن زيدون، ص 123.

وكثيراً ما امتزجت الطبيعة بعنصري المرأة والخمرة، فشكلا معاً مزيجاً عذباً رائقاً، واجتماعهما مع بعضهما من وحي ربوع الأندلس الغناء، وليالي السعادة والهناء في أحضان تلك الطبيعة الساحرة، حيث يحلو الغزل، وتطيب الخمرة.

فجمال الربيع لا تدانيه إلّا لذة الخمرة، وأزهاره الفواحة لا يجوز أن تُبذل إلّا للسلافة المعتقة، فيقول أبو بكر بن عمار: " من الكامل "

أدرِ الزّجاجة، فالنّسيمُ قد انبرى	والنّجمُ قد صَرَفَ العِنان عن السُّرى
والصُّبْحُ قد أهدى لنا كافورَهُ	لمَّا استردَّ اللَّيلُ منَّا العنبرَا
والرَّوض كالحسنا كساه زهرُه	وشياً، وقلّدهُ نداه جوهرا
أو كالغلامِ زهَا بوردِ رياضِهِ	خجلاً، وتاهَ بآسِهِنَّ معذَّرَا
روضٌ كأنّ النّهْرَ فيهِ مِعْصَمٌ	صافٍ أطلَّ على رداءٍ أخضرا[7]

فمشهد الحسن والصفاء أعلن عن بروزه وحضوره من خلال عنصر الخمرة التي استهل بها الشاعر أبياته عبر فعل الأمر " أَدِر"، فكشف عن رغبته الملحة في حضور هذا المجلس الخمري الأنيق، وليكتمل المشهد الطبيعي بدا الروض كحسناء فاتنة، كُسْوَتُه من الأزهار الملونة، وقلادته من الندى الذي بدت حبيباته كجواهر براقة لامعة، ومعصمه النهر الذي أطلَّ على بساط أخضر صافٍ.

والطبيعة عند الشعراء الملوك والقادة في الأندلس ليست دائماً لوحة ربيعية مشرقة زاهية، بل قد يصيبها الجدب، ويحل بها القحط بسبب انحباس الخير والمطر، ولكن بتساقط الغيث وانهماره يزول الهم، وتنفرج الغمة، وينكشف البلاء، ويعم الخير.

وفي ديوان الشاعر الوزير لسان الدين بن الخطيب لوحة طبيعية تعلن حضور هذا المشهد بتصوير دقيق ومفصل. ففي هذه اللوحة المكونة من تسعة أبيات، وقد خصها بهذا الموضوع وحده، تصوير لهيئة نزول المطر، ثم مرأى الأرض بعد ذلك، وفيها يقول: " من الطويل "

لَقَدْ زالَتِ الَّلأْوَاءُ وارتفعَ الجَهْدُ	وأَطْنَبَ في شُكْرِ الحيا الغَوْرُ والنَّجْدُ
غداةَ سرَتْ ريحُ النُّعَامى لواقحاً	وجاءَ على آثارِها الغيثُ مِنْ بَعْدُ
سَحَائِبُ أمثالِ القِطَارِ إذا ونَتْ	بمثقلةِ الأوقارِ، صاحَ بِهَا الرَّعْدُ
وهشَّ عليها البَرْقُ بالسُّوْطِ فانبرَتْ	تُدافِعُ في عَرْضِ الغلاةِ وتَشْتَدُّ
فما كانَ إلَّا أَنْ أناخَتْ وعرَّسَتْ	فعرَّسَتِ النّعمَاءُ، واقتُضِيَ الوَعْدُ

لقد امّحت الشدة، وانتهت المحنة، ووجهت الأرض – ما انحدر منها وما ارتفع – الثناء والشكر للمطر بفعل إحيائها من جديد صور ابن الخطيب الطبيعة قبل انهمار الغيث كأنها في أزمة تشكل وخلق، بل في مخاض ولادة

7 . ابن عمار، شعر محمد بن عمار الأندلسي. قراءة وتوثيق وتعليق: مصطفى الغديري. ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجده، المملكة المغربية، 2001م، ص 65.

صعب، فهناك معاناة أصابت عناصر الطبيعة المؤثرة في نزول المطر من ريح وسحاب ورعد وبرق، فريح النعامى " وهي ريح الجنوب من أندى الرياح وأرطبها " كانت حبلى لواقح، وسحائب المطر مثقلة الأوقار " محملة بالماء "، والرعد صاح، والبرق هش، وإذا بالسحائب تُدافِع وتشتد، وقبل المخاض كان الجماع، فكل المشاهد التصويرية المتسلسلة توحي بذلك، فالريح هي العامل المسّبب في تلقيح ونشوء السحب متتالية مثل قطار الإبل، وأصوات الرعد هي أصوات المخاض العسير، والبرق يلعب دور القادح " السّوط " للإسراع بعملية المخاض، والسحب " تدافع " و " تشتد " كالحبلى التي تود وضع جنينها بسرعة، ثم عملية الارتخاء والخضوع، وانفراج الأزمة، ونزول المطر الغزير وتحقق الوعد.

ثم يعمد الشاعر إلى تصوير مشهد الأرض بعد انهمار الغيث، فبدت في خصب ونعمة وثروة ونماء مستمداً مصادر تصويره من تجارة الحرير والديباج الغليظ، وكل رداء ثمين فاخر يؤتى به من اليمن أو من الهند، ونراه يقتبس ألفاظ قرآنية، فتصبح الأرض أشبه بجنة يود الإنسان وجودها وتحققها في الحياة الدنيا، تتجلى فيها نعم الله التي لا تعد ولا تحصى، حيث الحمام يشدو بألحان عذبة، ويختم الشاعر نصه بحمد الله وشكره فيما أبداه من رفق ورحمة بالناس في الأحوال كلها، فيقول:

وجَلَّتْ تِجارُ الرَّيْعِ، كُلَّ بِضَاعةٍ ... تُقِرُّ لَهَا صَنْعَاءُ، بالفضْلِ والهِنْدُ
فَمَا شِئْتَ فيها من نمارقِ سُنْدُسٍ ... وإستبرقٍ، من فوقِ غُبْرِ الرُّبى، يبدو
ولائِمُ فَضْلِ اللهِ، فيها مَوَائِدٌ ... تقومُ قَيانُ الوُرْقِ، من فوقها تشدو
لكَ الشُّكْرُ يا رحمنُ فيما بَذَلْتَهُ ... من الرِّفقِ فينَا دائماً، ولكَ الحمدُ[8]

إنه مشهد تصويري آسر، استطاع الشاعر تتبع تفاصيله، وعرض أحداثه وهي بصدد الوقوع، كأنه مصور يجيد التقاط الصور بعدسته، فيبدع في إبرازها والإشارة إليها.

ولئن برع الشعراء الملوك والقادة في وصف الربيع، وإبراز محاسنه، والكشف عن مباهجه ومجالسه، فإن فصل الشتاء قلما استوقفهم، بل كان جل عنايتهم تتجه عادة إلى فصل الربيع المزهر المشرق. فها هو ذا الوزير ابن عمار يصف يوماً غائماً، فيقول: " من الكامل "

يومٌ تكاثَفَ غيمُهُ فكأنَّهُ ... دونَ السّماء دُخانُ عُوْدٍ أَخْضَرِ
والطَّلُّ مِثْلَ بُرَادَةٍ من فضَّةٍ ... منثورةٍ في تُرْبةٍ من عَنْبَرِ
والشَّمْسُ، أحياناً، تلوحُ كأنَّها ... أَمَةٌ تعرِّضُ نفسها للمُشْتَرِي[9]

---

8 . ابن الخطيب، لسان الدين. ديوان لسان الدين بن الخطيب. تحـ: د. محمد مفتاح. ط1، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1989م، المجلد الأول، ص341 . 342. اللأواء : الشدة والمحنة، الحيا: المطر لإحيائه الأرض والناس، الغور: ما انحدر من الأرض، النجد: ما ارتفع من الأرض، ريح النعامى: ريح الجنوب لأنها من جزيرة العرب أندى الرياح وأرطبها، القطار: جمع قطر: المطر، ونت: ضعفت، الأوقار: السحاب المثقل بالماء، عرّست: خضعت، الربيع: النماء والزيادة، النمارق : جمع نمرقة الوسادة الصغيرة يستند أو يتكآ عليها، الاستبرق: الديباج الغليظ فارسي معرب. انظر في لسان العرب.

9 . شعر محمد بن عمار الأندلسي، ص 78.

اعتمد الشاعر في هذا المشهد التصويري على عناصر طبيعية ثلاثة وظفها في خدمة الغرض المراد في هذا اليوم الغائم، حيث بدا الغيم الكثيف أشبه بدخان عودٍ أخضر، والمطر الخفيف أشبه بنثرات فضة تناثرت في تربة من عطر وعنبر، والشمس تظهر في بعض الأوقات أشبه بأمة تعرض نفسها للمشتري. هكذا استخدم ابن عمار التشبيه لإبراز معالم هذا اليوم الممطر، وتفصيل ما يحتويه من مكونات طبيعية. ولا يجوز أن نغادر وصف الطبيعة الصامتة دون أن نعرج على معنى من معانيها، مثل عند بعض الشعراء الملوك والقادة مشغلاً مهماً، وظاهرة طبيعية أثارت إعجابهم، وافتتنوا بمشاهدها، ولا غرو أن يصف ابن زيدون الليل، ويخاطبه في أسلوب حواري شائق، متمنياً منه عبر أسلوب النداء الإطالة كي يتصل بالمحبوب ما استطاع، والإخبار ليدلي له بأخبار تطيب لها نفسه، ويلذ بها قلبه، لكن المخبر " الليل " يصدمه بغدر المحب له، فيقول: " من مجزوء الرجز"

يا ليلُ طُلْ، لا أشْتَهي ... إلَّا بوصلٍ، قِصَرَكْ
لو باتَ عندِي قَمَرِي ... مَا بتُّ أَرْعَى قَمَرَكْ
يا ليلُ خَبِّرْ: أنْني ... ألتَذُّ عنهُ خبَرَكْ
باللهِ قُلْ لي: هل وَفَى؟ ... فقالَ: لا بَلْ غَدَرَكْ[10]

فنلحظ الموسيقا العذبة التي تنسابُ في ثنايا الأبيات من خلال المفردات التي تتردد وبكثرة، معبرة عن شعور يوحي بالحسرة والأسى وخيبة الأمل.

ويبدو الليل عند الملك الشاعر يوسف الثالث، وهو ينشر ظلمته في أديم الأرض، أشبه بآثار كحل في جفون حسان، فيقول: " من الكامل "

واللّيلُ مُمْتَزِقُ الأديمِ كأنَّهُ ... آثارُ كُحْلٍ في جفون كِعَابِ[11]

ويقابل بين ظلام الدجى وفئة العدو، وكما هو معلوم أن النجوم مصدر هداية، لكنها عند شاعرنا مصدر ضلالة، وهي مشرقة متوهجة على الدوام، لكنها ملازمة للعتمة والظلام عند شاعرنا، كما يقول مصوراً إياها: " من الطويل "

فأشبهُ شيءٍ بالدُّجَى فئةُ العِدَى ... إذا ما أضَلّتها النُّجومُ العواتمُ[12]

وعُدَّ مشهد الطبيعة وتصوير تجلياتها منطلقاً لتمجيد الخالق، يدعو فيه إلى التأمل فيما أبدعه من مظاهر الكون المتعددة الغنية، فهذا ابن زمرك يبين مظاهر الجمال والإبداع في مخلوقات الله وتكويناته من فلك وسماء وأرض، ويدعو

10 . ديوان ابن زيدون، ص63.
11 . الثالث، يوسف. ديوان يوسف الثالث ملك غرناطة. تحـ: عبد الله كنون. ط1، تطوان، معهد مولاي الحسن، 1958م، ص12.
12 . المصدر نفسه، ص 141.

الإنسان إلى تسبيحه وتنزيهه وتقديسه، فهو بحر الوجود، نعمه لا تعد ولا تحصى، وتجلياته متكشفة في عوالم الكون الرحب، فيقول: " من البسيط "

هذي العوالمُ لفظٌ أنتَ معناهُ كُلٌّ يقولُ إذا استنطقْتَهُ اللهُ
بحرُ الوجودِ وفلكُ الكونِ جاريةٌ وباسمِكَ اللهُ مَجْرَاهُ ومُرساهُ
من نورِ وجهِكَ ضاءَ الكونُ أجمعُهُ حتّى تشيَّد بالأفلاكِ مبناهُ
عرشٌ وفرشٌ وأفلاكٌ مسخَّرةٌ وكلُّهَا ساجدٌ لله مولاهُ
سُبحانَ من أوجدَ الأشياءَ من عَدَمٍ وأوسَعَ الكونَ قبلَ الكونِ نعماهُ[13]

فما أروعها من مشاهد عندما تنقل من المستوى الواقعي إلى مستوى الإبداع والنظم، ويشار فيه إلى مبدع هذه المكونات الطبيعية، وخالق الخلق، ومخترع الوجود، كما توسل بعض الشعراء الملوك والقادة في بعض نصوص الوصف إلى إطراء الممدوح، وتعديد صفاته، والمبالغة في تمجيده.

ولئن تجلت مظاهر الطبيعة وألوانها بشكل ملفت عند الشعراء الملوك والقادة، فقد غابت عند بعضهم موضوعات وموصوفات أخرى، أو ظهرت بشكل باهت، منها ما ينتمي إلى الطبيعة الصامتة كوصف الجليد أو الثلج، ومنها ما ينتمي إلى الطبيعة الحية، فلا نكاد نعثر في أشعارهم إلا على أبيات قليلة نادرة وردت عرضاً في سياق موضوع آخر. فابن زمرك مثلاً ذكر الجليد في موقف تهنئة السلطان محمد الخامس بعودته إلى غرناطة، يقول: " من الكامل "

لمَّا أتى المَوْلَى الإمامُ مُحمَّدٌ مِنْ وُجْهَةٍ تَقْضِي بنَصْرِ لِوَائِهِ
الفَحْصُ أصبحَ بالجليدِ كأنَّهُ لَبِسَ البياضَ لعيدِ يومِ لقائِهِ
أو شابَ توقيراً له وَمَهَابةً حتّى تلفَّعَ وَجْهُهُ بردائِهِ
وأتى شُعَاعُ الشّمْسِ يَخْضِبُ شيبَهُ فبدَا عليهِ الصِّبْغُ من حِنَّائِهِ[14]

فوصف الجليد في أبيات ابن زمرك جاء لخدمة غرض التهنئة الرئيس، فالطبيعة بكل ما فيها من صور ومظاهر تحتفل بقدوم الملك، لدرجة أن مروج غرناطة اكتست بالجليد بياضاً احتفاءً بحضوره، وجللها الشيب مهابة وتوقيراً له.

ومن المواضيع المغيبة في الوصف بعض موصوفات الطبيعة الحية، فشعراؤنا لم يعيروا هذا الموضوع اهتماماً كبيراً، ومن الموصوفات التي وقفوا عندها على سبيل المثال وصف الخيل إذ ذكرها الشاعر الملك يوسف الثالث في أبيات متفرقة من ديوانه، دون إبراز أجزائها، والتدقيق في تفصيلاتها، فأشار إلى حركة الخيل، مع أمور أخرى محببة إلى نفسه أكثر من محبته لمجلس لهو أو شرب خمر، فيقول: " من المتقارب "

13 . ديوان ابن زمرك، ص 129.

14 . ديوان ابن زمرك، من القصيدة رقم 35، الفحص: المروج الخصبة المحيطة بغرناطة.

وبانَةِ دَوْحٍ تُهادِي النُّفوسَ بلفحِ الهجيرِ نسيمَ الصَّباحِ
فركضُ الجيادِ، وقسْر الأعادي وغوث المنادي، ونحر اللّقاحِ
وردع الدماء، وظلْ اللواء أحبُّ إلى القلب من كأس راحِ[15]

وقد أوردها في عبارات إيقاعية متوازنة " ركض، قسر، غوث، نحر، ردع، ظل "، ملازمة في السياق للمضاف إليه " الجياد، الأعادي، المنادي، اللقاح، الدماء، اللواء " حتى يصل إلى اسم التفضيل " أحب". كلها أسماء تدلل على أشياء محببة لشاعرنا الملك الفارس الذي يشاهد هذا الحيوان النبيل في هجومه وتنقلاته السريعة، مبدياً القوة التي يتسم بها، والصلابة والقدرة على المناورة، فيقول: " من الطويل "

وأمّا مُجاراة الرّياحِ لغارةٍ فحقٌّ على الخيلِ المُغيرةِ لازمُ
نوازعُ عنّا للّذي ضَلَّ رشدَهُ فمهما عناهُنَّ العِتَاقُ الصلادمُ
فإنَّ لنا الخيلَ العِتَاق إذا انبرَتْ تخالُ بأيدي الريح منها الشكائمُ[16]

كاد وصف الطبيعة الحية يغيب في مدونة الشعر الوصفي لدى شعرائنا، ولكن نصوصهم على قلتها وندرتها لم تخل من الإبداع.

أما مجالس الأنس فهو موضوع من أهم ما يميزه عند الشعراء الملوك والقادة، أنه مطبوع بطابع العصر، مسكون بهواجسه، وندرة هذه النصوص هي في حد ذاتها علامة من علامات العصر، ودليل على تغيّر وجه الحياة بالأندلس. وسنقف هنا على نصٍّ من نصوص الشاعر الملك المعتمد بن عبّاد يصف فيه ليلة ساجية من ليالي الأنس، اجتمعت فيها عناصر مجالس الأنس جميعها، ومنها الإطار الطبيعي الساحر بمكوناته كلها، فمجالس الأنس حسب تقاليد الأندلس المعهودة تقع بين أحضان الطبيعة وسط الرّياض الغنّاء والبساتين المزهرة الجميلة، بالإضافة إلى الخمرة والموسيقا، فيقول في هذه الليلة: " من الكامل "

ولقد شربْتُ الرَّاحَ يسطعُ نورُها واللّيلُ قد مَدَّ الظّلامَ رداءَ
حتَّى تبدّى البدرُ في جوزائِهِ مَلِكَاً تناهى بهجةً وبَهاءَ
لمَّا أراد تنزُّهاً في غربِهِ جعلَ المظّلة فوقَهُ الجوزاءَ
وتناهضَتْ زُهْرُ النُّجومِ يحفُّهُ لَأْلَاؤها، فاستكمل الآلاءَ
وترى الكواكبَ كالمواكبِ حولَهُ رُفِعَتْ ثُريَّاها عليه لواءَ
وحكيتهُ في الأرضِ بينَ مواكبٍ وكواعبٍ جمعَتْ سَنَاً وسَنَاءَ
إنْ نشَّرتْ تلك الدّروع حنادساً ملأت لنا هذي الكؤوسَ ضياءَ
وإذا تغنَّتْ هذه في مِزْهَرٍ لم تألُ تلكَ على الَّتَرِيْكِ غناءَ[17]

---

15 . ديوان ملك غرناطه، يوسف الثالث، ص32.

16 . ديوان ملك غرناطة، يوسف الثالث، ص 141 . 142، العتاق: الكريمة الأصيلة الرائعة، الصلادم: الشديدة الحافر، الصلبة، الشكائم: من اللجام: الحديدة المعترضة في فم الفرس. مادة " عتق ": لسان العرب، الجزء الثاني عشر، ص107، مادة " صلد ": ص244. مادة " شكم " الجزء الخامس عشر، ص216.

17 . ديوان المعتمد بن عباد، ص28. الحندس: جمعه حنادس: الليل الشديد الظلمة، انظر لسان العرب.

هذه الأبيات تصوير لليلة من ليالي الهناءة والسعد التي كان المعتمد ينعم بكلّ لحظة من لحظاتها، حين كان متربّعاً على عرش الملك والسيادة، حيث يصف الخمرة فيها وقد تألّقت بين يديه بريقاً وضّاءً في حلك الظّلام وسواد العتمة، وهو ما يزال يعاقرها حتّى بدت خيوط الفجر الأولى بالظّهور، وتراه قد تربّع على عرش الجوزاء سيّداً ملكاً مزهّواً بنفسه ومنزلته، فبادرت النجوم مسرعة لاستقباله والاحتفاء بحضرته، وراحت تحيط به وتسطع بلألائها من حوله. كلّ ذلك في مشهد سماويّ يلفت النظر، ويسحر العقول، مشهد يقابل صورة أخرى من حياته على الأرض.

فالشاعر الملك يرى نفسه في مشهد يحيط به الندمان والحسان اللواتي يتمايلن في غنج ودلال. لوحة مشرقة رُسمت بريشة فنّان، استخدم فيها الألوان الزاهية، لم تحفل أبياتها بالغوص في المعاني والصور، إنما اعتمد فيها شاعرنا على الصور القريبة كتشخيص البدر ملكاً، والنجوم خدماً، وتشبيه الظلام بالرداء، وتوظيف المحسنات اللفظية كدلالة على حياة الترف التي يحياها شاعرنا كالجناس بين اللألاء والآلاء، وبين المواكب والكواكب، وبين السّناء السّنا.

وتتسم نصوص ما يمكن ان نطلق عليه عوارض الموصوفات بالقصّر، فقد وردت على شكل مقطوعات، لكنها عصّية على العّد والحصر، فوصف الشعراء الملوك والقادة المنكانة*، والمرآة، والعمامة، وحمّالة السيف، والناعورة، وغيرها من الموصوفات، كما وصفوا الإنسان بكل أشكاله، وهيئاته، وصفاته، بجماله، وقبحه، بشبابه، ومشيبه، ووصفوا المدن، والأماكن، ولكن كان ذلك كله على هيئة مقطوعات خاطفة.

فقد اهتم ابن الخطيب اهتماماً خاصاً بوصف الرجل أو الغلام كما يسمّيه، فوصفه راجلاً، وراكباً، سابحاً في اليمّ، أو مرتقباً هلال الفطر، فوصف في مزدوجتين اثنتين غلاماً حالك اللون، معبّراً عن جنونه به هوى وصبابة، يقول في إحداها: " من الكامل "

قالُوا كَلِفْتَ به غُلاماً حالكاً فأجْبتُهمْ لي فيه ما يشفي المُهَجْ
مَهْمَا جُنْنتُ به هوىً وصبابةً عَلَّقْتُ فوقي مِنْهُ حِرْزَاً من سَبَجْ[18]

ومن أطرف الطرف شغفهم بوصف ذوي العاهات القبيحة كالرّمد، والحول، محوّلين هذا القبح إلى جمال، مدّعين أنّه زادهم جمالاً على جمال، فيصّور ابن الخطيب الأحول في معنى مخترع، إذ يقول: " من الطويل"

وَأَحْوَلُ يُعْدِي القلبَ سُقْمُ جفونِهِ فَتُضْحي صحيحاتُ القُلُوبِ به مَرْضى
رأى الحُسْنُ أنَّ اللّحظَ مِنْهُ مُهَنَّدٌ فحرَّفَهُ كيما يكونُ له أَمْضَى[19]

إنَّ وصف العاهات بمثل هذا الوصف هو من قبيل تجميل القبيح، ومن قبيل جمال الكلام في مرجع بلا جمال. إنّه خروج عن التقليد السائد والمعروف، وهو دليل على ترف الحضارة، وفرط البذخ في الحياة الاجتماعية للأندلس.

*** . ارتبطت أعياد الميلاد في المغرب والأندلس بالمنكانة، التي تخبر عن انقضاء كل ساعة من ساعات ليلة المولد، وقد وصفها ابن الخطيب في ديوانه، فقال: " منكان غريب أجوف في مثل القامة صُيّر منه شكل الاستدارة إلى جهات اثنتي عشرة، في أعلى كل جهة منها محراب. انظر هامش الصفحة 216 من ديوان ابن الخطيب.**

18 . ديوان لسان الدين بن الخطيب، ص216.

19 . المصدر نفسه، ص640.

وما يستوقفنا بعد ذلك من شعر عوارض الموصوفات، وصف الأماكن والبلدان، وتتعلق هذه الأشعار بوصف الأماكن، ومدن الأندلس كقرطبة، وغرناطة، والحمراء الشامخة بما فيها من وصف دور وقصور ومتنزهات. فهذا ابن زيدون يخصّص أبياتاً في وصف جنّة من جنّات المعتضد، لكأنَّ هذه الروضة جنة أرضية، عجز الشعر عن وصفها بعد أن تنقل في أجزائها، وتمتّع بسِحْرها وجمالها، يقول فيها: " من الخفيف"

بوّأتني نُعماك جَنّةَ عَدْنٍ ... جَالَ في وَصْفِها، فَضَلَّ القريضُ
مُجتنىً مُدّنٍ، وظِلٌّ بَرُودٌ ... ونسيمٌ، يشفي النّفوسَ، مريضُ
كُلَّما غنَّتِ الحمائمُ قُلنَا ... مَعْبَدٌ، إذا شَدَا، أجابَ الغريضُ
جاورَتْ حَمَّةً، مشيَّدةَ المَبـ ... ـنى لَبْرق الرّخامِ فيه وَمِيْضُ
مَرْمَرٌ، أوقدَ الفِرنْدَ عَليهِ ... سلسلٌ، بحرُهُ الزّلالُ يفيضُ[20]

في هذه الجنّة الأرضيّة معالمُ السحر والفتنة، ثمارها دانية القطوف، ظلّها برد وسلام على المقيم، نسيمها عليل يبرئ النفوس، تشدو الحمائم على أغصانها كغناء معبد وغريض، فتطرب الأسماع لها، وهي بجوار عين حارة الماء، المبنى فيها مشيد من رخام ذي بريق، ناعم يجري فيه الماء عذباً صافياً.

ووصف البلدان قلَّما أتى بريئاً مجرّداً، بل عادة يأتي مبطّناً بالمدح أو الذّمّ، وقد يأتي مركّزاً على المناخ والموقع الجغرافي، كما في ذمّ ماغوس، حيث يقول ابن الخطيب في وصفها: " من البسيط "

ماذا لَقيْنَا بماغوسٍ من اللَّغطِ ... ليلاً وَمِنْ هَرَج الأحْراسِ والشُّرَطِ
ومن رداءَةِ ماءٍ لا يَسُوغ لنا ... شرابُ جُرعَتِهِ إلّا على شَطَطِ
ومن لُغَاتٍ، حَوَالينا مُبْربَرَةٍ ... كأنّنا في بلادِ الزّنجِ والنَّبطِ
جَرْدَاءُ لا شجراتٌ يُستَظَلُّ بِهَا ... ولا أنيسٌ يُريحُ النّفس من قَنَطِ
منارُها قَعَدَ الباني بنصبتِهِ ... فلا تشيرُ إليه عينُ مُغتبِطِ[21]

أصوات قومها مبهمةٌ لا تفهم، وأصحاب الحماية من حرس وشرطة في فتنة واختلاط بينهم، ماؤها عكر لا تستساغ منه جرعة إلا على مضض، وفي أشد الحالات قساوة، لغات أبنائها أعجمية لا يربطها رابط، فهي مختلطة من هنا وهناك، أرضها قاحلة جرداء لا شجيرات يستظل بفيئها، ولا وجود لمؤنس يريح النفس من يأس وتعب، هيئة بناء المنازل فيها سيئة لا تجذب الناظر إليها أبداً.

وتعددت المصنوعات التي اهتم بها الشعراء الملوك والقادة وتنوعت، فمن الأدوات البسيطة مثل المرآة، والسكين، وحمالة السيف، إلى وصف بعض المأكولات الشائعة في الأندلس، إلى وصف بعض الصناعات التكنولوجية كما نطلق عليها اليوم مثل ساعة المنكانة والناعورة والبارود وغيرها.

20 . ابن زيدون، ص 142، معبد وغريض من المغنين المشهورين في العصر الأموي.

21 . ديوان ابن الخطيب، ص462، ماغوس: وهي حاضرة من حواضر تامسنا، وتامسنا هي كلمة بربرية من لهجة زناتة، وقد أطلقت على الأراضي الممتدة على ساحل المحيط من الرباط عند مصب وادي الربيع، انظر هامش الصفحة 462 من الديوان.

فقد أتحفنا المعتمد بن عباد بوصف شمعة حين قال:

وشمعة تنفي ظلام الدُّجَى نفي يدي العُدْمَ عن النَّاسِ
ساهرْتُها، والكاس يسقي بها مَنْ ريقُهُ أشهى من الكاسِ
ضياؤها – لا شكَّ – من وجهِهِ وحرُّها من حرِّ أنفاسِي[22]

فيصورها أداة للضياء، وجالبة للسهر في أيام السّمر، وعامل نفي للعدم والظلام في حياة الإنسان وها هو ذا ابن عمَّار يصف زورقاً، فيقول فيه: " من الطويل "

وجاريةٍ مثل الهِلالِ أَلفْتُهَا على نهرٍ مثلَ السماءِ رقيقِ
تجلَّى لنا الإصباحُ وهو زُمُرُّدٌ فألقَتْ عليه الشَّمسُ ثَوْبَ عقيقِ[23]

له شكل هلال يجري على نهر رقيق كالسماء، وهو حجر كريم كالزمرد حين انكشف الصباح وقد ألقت عليه الشمس ثوباً من خرز أحمر نقي.

وقد عمد الشعراء الملوك والقادة إلى وصف الجانب القاتم من حياتهم، حياة السجن والظلام والحرمان بعد أن تنعموا بملذات الدنيا حين كانوا يتقلدون المناصب، ويتربعون على عرش الملك والسيادة، فراحوا يصورون تجربتهم القاسية بما فيها من معاناة وقهر بدءاً من لحظة وقوعها، إلى تصوير الرحلة إلى مكان الأسر والسجن، كما وصفوا السجون بأنواعها المختلفة، وقارنوا بين حالهم في السجن وما قبله، ووصف بعضهم جلساءهم وأبناءهم في السجن، كما وصفوا غدر الزمان وتقلب الأحوال، وتنكر الناس لهم، كما عدّد بعضهم صفات أعدائه والشامتين بهم، وأبرز بعضهم تدهور الحالة الصحية التي وصلوا إليها نتيجة طول المدة في السجن، وفقدان الأمل والشعور بدنو الأجل.

إن تجربة المعتمد بن عباد الشاعر الملك، تجربة واقعية حية لمعاناة متجددة، ومأساة استمرت لسنوات في السجن، أطاحت بعرش الأبهة والملك الذي تربع عليه مدة من الزمن، فها هو ذا يصف لنا حاله اليائسة ودموعه الحرى أثناء رحلته من إشبيلية إلى أغمات، حيث وصل إلى موضع، وأهل البلد خارجون للاستسقاء، فقال لهم بحسرة وتفجع: دمعي يغنيكم عن المطر، لكنهم ردوا عليه: حقاً إن في دموعك الغزيرة مقنعاً، لكنها ممزوجة بالدماء، فيقول: " من الكامل "

خَرَجُوا ليستسقُوا، فَقُلْتُ لَهمُ دَمْعي يَنُوبُ لَكُمْ عَنِ الأنواءِ
قالوا: حَقِيْقٌ، في دُمُوعِكَ مَقْنَعٌ لكنَّها ممزوجةٌ بدماءِ[24]

22 . ديوان المعتمد بن عباد، ص30.
23 . شعر محمد بن عمّار، ص121.
24 . ديوان المعتمد بن عبّاد، ص89.

ويلخص مأساته القاسية، شارحاً كيف تبدل به الزمان، ونكست رايات الشجاعة والبأس التي كان يتفيأ بظلها، أما الآن فهو يعاني من ذل القيود الحديدية التي تثقل جسده وتحيط به، كما تثقل روحه ونفسه فتزيدها ذلاً وقهراً وحرماناً، فيقول: " من المتقارب "

تبدَّلْتُ من عزِّ ظلّ البُنُودِ ... بذُلِّ الحديد وثِقْلِ القُيُودِ
وكان حديدي سِنَاناً ذليقاً ... وعَضْبَاً رقيقاً صقيل الحديدِ
فقد صار ذاك وذا أدهماً ... يعضُّ بساقيَّ عضَّ الأسودِ[25]

لقد آلم ابن عباد القيد، فراح يتذكر ماضيه، ويصف حديد القيد الذي يبدو رمحاً نافذاً وسيفاً رقيقاً مصقول الحديد، كلاهما يعضُّ بساقيه عضّ الأسود.

كما يصف قيوده الحديدية في موضع آخر من أشعاره، هذه القيود التي التفت حوله، والتوت عليه في شكلها وخلقتها كثعابين تتلوى، وفي قوتها وبطشها هي أشبه بالأسود، والتي لم يحن فكها بعد، فيقول مخاطباً من أطلق سراحهم من السجناء الذين كانوا معه في سجن أغمات: " من الطويل "

تخلَّصْتُمُ من سِجْنِ أغماتَ والتوَت ... عليَّ قُيُودٌ لمْ يَحِنْ فَكُّها بَعْدُ
مِنَ الدُّهْمِ أمَّا خَلْقُها فأسَاوِدٌ ... تَلَوَّى، وأمَّا الأَيْدُ والبطشُ فالأُسْدُ[26]

أمّا ابن شهيد، فيصف سجنه وصفاً تفصيلياً مؤثراً، فهو في مكان بعيد عن وطنه، وهذا ما أسهم في إذكاء شعور الغربة النفسية والمكانية في السجن، وزاد من الهم والعذاب والفراق، وسجانه جبار عتيد، مقيم بدار الظالمين طريد، نال ساكنوها من الأذى ما يجعلهم يقومون ويقعدون على جمر الموت كما يرغب أن يعرف إخوانه، ويسمع للجنّ في أرجاء هذه الدار صوتٌ كترديد الصدى ونشيد، فيقول: " من الطويل "

فراقٌ وشجوٌ واشتياقٌ وذلَّةٌ ... وجبَّارُ حُفَّاظٍ عليَّ عتيدُ
فَمَنْ مُبلِغُ الفتيان أنّيَ بعدهمْ ... مقيمٌ بدارِ الظّالمينَ وحيدُ
مقيمٌ بدارٍ ساكنوها من الأذى ... قيامٌ على جَمْرِ الحِمامِ قعودُ
ويُسمع للجنَّان في جنباتها ... بسيطٌ كترجيع الصَّدى ونشيدُ

وإذا ما اهتز باب السجن تفطرت قلوب السجناء، وتقطعت أكبادهم خشية الموت، ولم يكن ابن شهيد مقيداً في سجنه، ولكن سخط الإمام هو الذي يقيده، فيقول:

---

25 . المصدر نفسه، ص 94.

26 . ديوان المعتمد بن عبّاد، ص95.

وما اهتزَّ بابُ السجنِ إلّا تفطَّرتْ قُلُوبٌ لنا خوفَ الرَّدى وكبودُ
ولستُ بذي قيدٍ يرنُّ وإنَّما على اللّحظِ من سُخطِ الإمامِ قيودُ[27]

ففي أبياته السابقة نجد شعوره البائس في وحشة السجن وظلامه، فهو المكان الذي يكابد فيه شتى أصناف العذاب والخوف والأذى.

ويقول ابن عمار في وصف سجنه، إنه في مكان لا في صحراء ولا بحر، وهو بمعارج عالية تؤدي إلى أرض قاحلة لا ترقى إليها الأنواء، ولا ينهمر فيها المطر، فهي أعلى من السحاب، وهو سجن شاهق الارتفاع جعلت منه الجن مرقاة إلى السماء حين مردت، حيث تسترق السمع، وحش ليس به إلف أو أنيس، متجبر وقور متكبر، قصرٌ تمهد بين جانبي الفلك والوكر، ملكت راحته عنان الريح، فجيادها تجري من تحته، وهو ملجأ العزيز لمنعته، فإن يُهْمَل يصير له مسكن ذلٍّ ومهانة: " من مجزوء الكامل "

بمعارجٍ أدَّتْ إلى جَرَدٍ حتَّى مِنَ الأَنْوَاءِ والقَطْرِ
عالٍ كأنَّ الجنَّ إذْ مَرَدَتْ جَعَلَتْهُ مرقاةً إلى النَّسْرِ
وحشٍ تناكرتِ الوجوُه بهِ حتّى استربْتُ بصفحة البَدْرِ
قصرٍ تمهَّدَ بين خافقَتَي نِسْرَيْن من فَلَكٍ ومن وَكْرِ
متجبِّرٍ سال الوقارُ عَلَى عطفيه من كِبَرٍ ومن كِبْرِ
ملكتْ عِنانَ الرِّيحِ راحتُهُ فجيادُها من تحته تجري
مأوى العزيزِ وقد نصحْتُ فإنْ يُهملْ فقدْ أبليتُ في العُذرِ[28]

ويسير الشاعر الوزير عبد الملك بن إدريس الجزيري على النهج ذاته، حين يصف معتقله في رأس جبل أجرد شاهق، ناء هو أقصى ما تطمح إليه الأبصار، فيقول: " من الكامل "

في رأسِ أجردَ شاهقٍ عالي الذُرا ما بعدهُ لموحِّد من مَعْصِرِ
يأوي إليه كلُّ أعورَ ناعقٍ وتهبُّ فيه كلُّ ريحٍ صرصرِ
ويكادُ من يرقى إليه مرّة في عمره، يشكو انقطاع الأبهرِ[29]

فهذا السجن العالي المنقطع عن العالم ليس إلا مأوى للغربان الناعبة، فلا بشر يمكن أن يصله أو يصعد إليه، ومن يحاول الارتقاء مرة تكاد أنفاسه تتقطع، تهب عليه كل ريح صرصرٍ عاتية مهلكة، وتجتمع في هذا الوصف غربة

27 . ديوان ابن شهيد، تحـ: بطرس البستاني. ص42.
28 . شعر محمد بن عمار الأندلسي، ص71.
29 . الجزيري، أبو مروان. شعر أبي مروان الجزيري الأندلسي. جمعه وحققه: د. أحمد عبد القادر صلاحية. ط1، دار المكتبي، سوريا، دمشق، ص137، المعصر: اسم مكان من العصر، أي الملجأ والحرز.

الروح والجسد، حيث وصف السجن وصفاً خارجياً لكنه لامس فيه ما يعاني من وحدة وانفراد في سجنٍ ناءٍ تزيده أصوات الطيور الجارحة، وهبوب الرياح العاتية وحشةً وحزناً.

وقد صور ابن زيدون نفسه بالسيف في قرابه، تعبيراً عن المدة الطويلة التي قضاها في السجن، فيقول:

إن طال في السّجن إيداعي فلا عجبٌ قد يُودَعُ الجفنَ حدُّ الصّارم الذكرِ[30]

ويلقى لسان الدين بن الخطيب قضاء الله بصبر جميل، فيقول: " من المتقارب "

ولكن لقيتُ بصبْرٍ جميلٍ قضاءَ الّذي لم يزلْ مجمَلا[31]

بعد أن دارت عليه نوائب الدهر، ورمته سهام النكبات، ونالت منه سعاية الوشاة والحاسدين، فقضى في غياهب السجن وهو في حالة من الوهن والذل والهوان، فيقول باكياً نفسه ومصيره: " من المتقارب "

بَعُدنا وإن جاورتنا البيوتْ وجئنا بوعظٍ ونحن صموتْ
وأنفاسنا سكتت دفعةً كجهر الصلاة تلاه القنوتْ
وكنّا عِظاماً فصرنا عِظاماً وكنّا نقوت فها نحن قوتْ
وكنّا شموسَ سماءِ العُلَا غَربْنَ فناحت عليها البيوتْ[32]

هذه الأبيات من مقطوعة تقطر أسىً ولوعة ، قالها في آخر أيام حياته ، وهو يعاني مرارة السجن، وألم الوحدة والفراق، فيناجي نفسه بصدق، ويبكيها بكاء مراً ناجماً عن الظروف الحالكة التي مر بها، والأحداث التي تصور قمة الصراع النفسي لشخصيته ن فهو الغريب عن الوطن والأهل والأصدقاء، الذين قذفوه بسهام الكراهية والبغضاء، وشاركوا في قتله، فبدا المكان كئيباً موحشاً، جعل الشاعر ميتاً ينتظر قضاء أجله وهو حي.

الخاتمة:

جاءت دواوين الشعراء الملوك والقادة صورة حية نابضة عن حياة الأندلس بأفراحها وأزماتها، فتعددت موضوعات الوصف لديهم وتنوعت وتفاوتت حجماً وإبداعاً، ارتبط الوصف بالوجه المشرق من حيث إن الطبيعة الموصوفة طبيعة ربيعية خصبة ريانة، نالت اهتماماً ملحوظاً في لوحاتهم الشعرية، فرسموا ألوانها بريشة من الفن المبدع الأنيق، بما تضمنته من وصف للدور والقصور وما حوته من مظاهر حضارية مشرقة.

وقد اتخذ الوصف عند بعضهم منحى سياسياً ارتبط في أحايين كثيرة بمقتضيات المدح ورغبات السلطان، فكانت الغاية إطراء الممدوح وتمجيده، كما عدت تجليات الطبيعة منطلقاً لتمجيد خالق الكون ومبدعه، على أن شعر الوصف

30 . ديوان ابن زيدون، ص141.
31 . ديوان ابن الخطيب، ص 774.
32 . ديوان ابن الخطيب، ص 185.

لم يخل من نزعة ذاتية وذلك خاصة في نصوص مجالس الأنس وفي كل النصوص التي تضمنت نشداناً للذة الكاملة وإشادة بها تمجيداً للحظة العابرة، ولم يفت الشعراء الملوك والقادة أن يصوروا لنا في ومضات ما يتسم بالنزعة الهزلية الساخرة من وصف أحول أو أرمد أو مكان.

وقد ارتبط الوصف بالوجه الآخر المتأزم الذي ينم عن نفسية قلقة صدرت عن تجربة قاسية عانى منها شعراؤنا في غياهب السجن والقيد فعمدوا إلى تصويرها بواقعية، ووصفوا ما عانوه من قهر وحرمان، ومقارنة بين ما كانوا وما آلوا إليه، فجاء وصفهم عميقاً مؤثراً صادقاً.

المراجع:

1 . بدوي، أحمد أحمد. *أسس النقد الأدبي عند العرب*. دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 1979م.

2 . الثالث، يوسف. *ديوان يوسف الثالث ملك غرناطة*. تحـ: عبد الله كنون. ط1، معهد مولاي الحسن، تطوان، المغرب، 1958م.

3 . الجزيري، أبو مروان. *شعر أبي مروان الجزيري الأندلسي*. تحـ: د. أحمد عبد القادر صلاحية. ط1، دار المكتبي، سوريا، دمشق، 1997م.

4 . الحميري، أبو الوليد إسماعيل بن محمد. *البديع في فصل الربيع*. تحـ: د. علي إبراهيم كردي. ط1، دار سعد الدين، سوريا، دمشق، 1997م.

5 . ابن الخطيب، لسان الدين. *ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني*. تحـ: د. محمد مفتاح، ط1، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1989م.

6 . ابن زمرك، محمد بن يوسف الصريحي الأندلسي الغرناطي. *ديوان ابن زمرك الأندلسي*. جمعه وقدم له وفهرسه د. أحمد سليم الحمصي. ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 1998م.

7 . ابن زيدون، أبو الوليد أحمد بن عبد الله. *ديوان ابن زيدون*. تحقيق وشرح: كرم البستاني. د ط، دار بيروت للطباعة والنشر، 1984م.

8 . ابن شهيد، أحمد بن عبد الملك الأشجعي. *ديوان ابن شهيد الأندلسي*. تحـ: يعقوب زكي، راجعه د. محمود علي مكي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1969م.

. ابن شهيد، أحمد بن عبد الملك الأشجعي. *ديوان ابن شهيد الأندلسي*. عني بجمعه تشارلز بيللت " Charles Pellat ". ط1، دار المكشوف، لبنان، بيروت، 1963م.

9 . ابن عبّاد، المعتمد. *ديوان المعتمد بن عبّاد ملك إشبيلية*. تحـ: د. حامد عبد المجيد، د. أحمد أحمد بدوي، راجعه د. طه حسين. ط3، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 2000م.

10 . ابن عمار الأندلسي، *شعر محمد بن عمار الأندلسي*. قراءة وتوثيق وتعليق مصطفى الغديري. ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، المملكة المغربية، وجده، 2001م.

11 . ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، " 630 هـ – 711 هـ ". لسان العرب. الدار المصرية للتأليف والترجمة.